كيف ننتصر؟

بقي علينا وقد عرفنا علة الهزيمة وأسبابها العميقة ـ أن نعرف كيف نمحو عارها ونحقق أمل النصر؟.

• تحديد الهدف أولا:

وقبل أن نبحث عن طريق النصر يجب علينا أن نتبين الهدف الذي نريده ونحرص على تحقيقه مهما يكلفنا من تضحيات. فإن وضوح الهدف وتحديده شرط ضروري لمعرفة الطريق الموصلة إليه، والوسائل المعينة على تحقيقه.

لقد رأينا بعد النكبة الثانية شعاراً يرفعه بعض الناس وهو إزالة آثار العدوان، وركزت الأجهزة الدعائية على هذا الشعار، حتى أصبح وكأنه الهدف المنشود، والأمل الموعود.

فهل هذا هدفنا في قضية فلسطين، وهل هذا هو ختام المطاف في مأساة الوطن السليب، أن تتراجع إسرائيل إلى حدودها قبل ٥ حزيران إن تكرمت بالرضا والقبول؟.

هذا ما يتبناه الواقعيون، ويدعون إليه همساً إن لم يجدوا الشجاعة ليعلنوه جهراً.

إن إزالة آثار العدوان واجب، وتحرير القناة والقنطرة والسويس

وسيناء وغزة والضفة الغربية والجولان واجب، ولكنه ليس هو الهدف. الهدف أبعد من ذلك وأكبر. والتركيز على إزالة آثار العدوان ـ فقط ـ معناه نسيان العدوان القديم بالعدوان الجديد. أي أن كل عدوان تكسب من ورائه إسرائيل أرضا أو وضعا، يضفي الشرعية على ما كسبته من عدوانها السابق أو الأسبق، وتحول كل الجهود إلى تصفية آثار العدوان الجديد، هذا أعظم كسب لإسرائيل.

لقد رفض العرب قرار تقسيم فلسطين، ثم ضمت إسرائيل بالقوة إليها أرضاً أكثر مما أعطاه لها قرار التقسيم. فعاد بعضنا يطالب أن تتراجع إسرائيل إلى الحدود التي تضمنها التقسيم، حسب قرار الأمم المتحدة.

ثم كسبت إسرائيل في عدوان سنة ١٩٥٦ حرية المرور في مياه العقبة، فقام من ينادي بأن تنسحب إسرائيل إلى ما قبل حرب ١٩٥٦ وتتخلى عن مكاسبها تلك.

ثم كانت نكبة الخامس من حزيران، فعادوا يطالبون بانسحاب إسرائيل إلى ما قبل ٥ حزيران، هكذا كل يوم نخسر وتكسب إسرائيل، ونعترف نحن ضمنياً ـ بهذا الكسب القائم على الإثم والعدوان.

أما نحن فنرى أن إسرائيل بناء لبناته من العدوان، وأساسه من العدوان، وأعمدته وسقوفه من العدوان، والعدوان كله لا بد أن يهدم ويزول. ولا حق له في البقاء والاستمرار ولو كره المجرمون.

أم يكون هدفنا هو إعادة اللاجئين الذين شردوا من ديارهم بغير حق أو توطينهم وتعويضهم بما يناسب خسارتهم؟.

أما توطين اللاجئين في أي مكان في مقابل تعويضهم عن وطنهم

بمقدار من المال يقل أو يكثر، فهو خيانة كبرى للوطن وللأمة وللدين، فوطن المسلم لا يباع ولا يعوض بالمال وإن كان ملء الأرض ذهبا. والوطن ليس ملكا لجيل من الأجيال حتى يقبل هذا الجيل المساومة عليه، والمعاوضة عنه، وهو ليس ملك السكان وحدهم حتى يفرطو فيه لو أرادوا، إنما هو ملك الأمة الإسلامية كلها، وملك الأجيال الإسلامية جميعاً، ولو افترضنا جدلاً أن أبناء فلسطين فرطوا في وطنهم وقبلوا أن يعوضوا عنه بالدولار أو الإسترليني لكان من واجب المسلمين كافة أن يقولوا لهم: كفوا أيديكم فليس هذا من حقكم... أن تفرطوا في أرض روتها دماء الصحابة والتابعين وضم ثراها رفات الألوف من الشهداء، منذ عهد عمر وصلاح الدين إلى يومنا هذا.

أما إعادة اللاجئين إلى ديارهم، ورد أملاكهم وأرضهم وبيوتهم وبياراتهم وكرومهم إليهم، فهو أمر واجب، ولكن تحت أي سلطان يعودون؟ أيعودون تحت حكم إسرائيل وعلم إسرائيل؟.

إن إسرائيل إن قبلت هذا ورضيته صادقة، فإننا لا نقبله ولا نرضاه، فكيف يجتمع اللص وصاحب البيت تحت سقف واحد؟

إن عودة صاحب الدار إلى داره يقتضي أولاً أن يطرد منها اللصوص وقطاع الطريق ومعنى هذا هو قبل كل شيء طرد إسرائيل.

ليس هدفنا مجرد إزالة آثار العدوان ولا توطين اللاجئين أو إعادة اللاجئين أفهل ترى يكون هدفنا إقلاق أمن إسرائيل؟

لا ريب أن إقلاق أمن إسرائيل، والعمل على تخريب مرافقها،

وإشعارها بالخوف والخطر، كل ذلك أمر واجب، وما تقوم به المنظمات الفدائية في هذا السبيل هو جهد مشكور وجهاد مبرور، متى ابتغي به وجه الله عز وجل.

ولكن ليس هذا هو الهدف، إننا نريد شيئاً بعد ذلك وفوق ذلك، نريد ما هو أكبر وأعمق وأخطر من ضرب المنشآت، وقتل الدوريات وتهديد طرق المواصلات.

نريد محو العدوان من جذوره، العدوان الذي قام على القوة الغاشمة والاغتصاب الظالم الأثيم، نريد محو إسرائيل، وإعادة الأوضاع إلى ما كانت عليه قبل الهجرات اليهودية الجماعية إلى فلسطين.

هذا هو هدفنا الذي لا نعدل عنه ولا نفرط فيه، ولا نساوم عليه، ولا نستخفي به، ولا نتخلى عن الإيمان به والدعوة إليه، والجهاد في سبيله، ولو تمالأت علينا الدنيا كلها، وخذلتنا معسكرات الشرق والغرب، وخانتنا حكومات اليمين واليسار.

* * *

• دعاة الواقعية المنهزمة:

يقول بعض الناس: إن محو إسرائيل حلم بعيد المنال. فلنكن واقعيين ولنعترف بما هو كائن، ولنطلب التعايش السلمي مع إسرائيل، خاصة أن إسرائيل ليست وحدها، فإن وراءها قوى عالمية تحركها الصهيونية بنفوذها ودولاراتها ولا زالت تعلن هذه القوى: أن إسرائيل خلقت لتبقى.

ونقول: إن هذه «الواقعية» هي بداية الهزيمة. بل هي الهزيمة عينها. وليس أقر لعين الباطل من أن نعترف بوجوده، ونتعامل واياه على أساس الواقع.

وأول طريق النصر أن تقتل العدو في نفسك، وأن تسقطه من قلبك، نحن نقر بأن هدفنا بعيد وبعيد اذا ظللنا على ما نحن عليه، وإسرائيل عندئذ ستبقى وتبقى.

ولكن هدفنا سيتحقق إذا نحن آمنا به، ورسمنا له الطريق القويم. ولن يكون زوال إسرائيل أعظم من زوال الصليبيين، وقد وطدوا أقدامهم في فلسطين حوالي قرنين من الزمان، وسقط بيت المقدس في أيديهم ٩٢ عاماً. وظن الناس بالله الظنون، وخيل إليهم أن علم الإسلام قد طوي من تلك الأرض المقدسة إلى الأبد.

وما هو إلا أن ظهر القائد الذي جمع الشتات. وأحيا الموات، وجدد الإيمان في القلوب، فاستيقظ الأمل في الصدور، وانجابت غشاوة اليأس عن الأنفس فكانت حطين. وكان فتح القدس على يدي السلطان التقي العادل صلاح الدين.

يقول ابن كثير في تاريخه «البداية والنهاية» عند ذكر يوم حطين:

«أنه لم يسمع بمثل هذا اليوم في عز الإسلام وأهله، ودمغ الباطل وأهله، حتى ذكر أن بعض الفلاّحين رآه بعضهم يقود نيفا وثلاثين أسيرا من الفرنج، قد ربطهم بطنب خيمة (حبل)... وباع بعضهم أسيراً بنعل ليلبسها في رجله... وجرت أمور لم يسمع بمثلها إلا في زمن الصحابة والتابعين».

وليت شعري أيها السادة الواقعيون... أيهما أبعد عن التحقيق

وأغرق في الخيال؟ إزالة إسرائيل وهي جزيرة صغيرة في بحر من الكراهية والمقاومة العربية والإسلامية أم إقامتها منذ أكثر من سبعين عاماً ولم يكن فيها إلا بضعة آلاف من اليهود يعدون أقلية ضئيلة لا وزن لها ولا اعتبار؟.

لا شك أن إزالتها الآن أقرب من حلم اقامتها يوم انعقد المؤتمر الصهيوني الأول في بال سنة ١٨٩٧ برياسة «هرتزل» الذي عاد من المؤتمر يقول بكل ثقة وغرور:

«لو طلب إلى تلخيص أعمال المؤتمر فإني أقول... بل أنادي على مسمع من الجميع... أنني قد أسست الدولة اليهودية وقد يثير هذا القول عاصفة من الضحك هنا وهناك ولكن العالم سيشهد بعد خمسين عاماً قيام الدولة اليهودية حسبما يمليه إيمان اليهود، بأن تنشأ لهم دولة...».

ومن العجائب أنه بعد خمسين عاما بالفعل، وعلى وجه التحديد في ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٤٧ أعلنت الأمم المتحدة قرار تقسيم فلسطين وقيام إسرائيل.

وبعد سبعين عاما تحقق الحلم الذي اتخذه اليهود شعاراً من قديم «العام القادم في أورشليم» ودخلوا أورشليم ودنسوا بيت المقدس، حرم المسلمين مسرى النبي الكريم.

* * *

• هذا هو الهدف فما الطريق؟

اذا عرفنا الهدف وحددناه، وهو إزالة الجرثومة الإسرائيلية من

جسم العروبة والإسلام. . . فما الطريق إلى هذا الهدف؟.

* * *

١ ـ المحافل الدولية؟

يرى فريق من الناس أن الطريق هو الإعتماد على الضمير العالمي. . . على المحافل الدولية، على العمل الديبلوماسي في ردهات الأمم المتحدة. . . فقد جربنا الجيوش واستعمال القوة في حربين كبيرتين، فلم نجن في كل مرة إلا الصاب والعلقم فلم يبق إلا الحل السلمي، والحل السياسي، ودعونا من التهور والمخاطرات الانتحارية.

ولا أدري نسي هؤلاء أو تناسوا موقف هذه المحافل الدولية منا، أكثر من عشرين عاما، نحن نخطب في ردهاتها، ونتصل بمندوبيها، ونقدم إلى مؤسساتها الشكوى تلو الشكوى، ما بين شديدة اللهجة ومعتدلة وخفيفة ـ حسب خطورة العدوان الواقع علينا و مقداره ـ فهل انصفتنا هذه المحافل؟ وهل وقفت بجانبنا؟ وإذا وقفت مرة بجانبنا فهل خطت خطوة تنفيذية؟ كلا، لقد كنا معها مثل عباد الأصنام مع آلهتهم، الذين وصفهم القرآن فأبلغ الوصف: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾[1].

أن الذهب اليهودي والنفوذ اليهودي يلعب في هذه المحافل دوراً خطيراً، فالذمم والأصوات تشترى وتباع في سوق المساومات

---

(١) سورة فاطر، الآية: ١٤.

الدولية. وبريق الدولارات والمعونات العلنية والخفية، والتهديد بكشف فضائح الحكام واتفاقاتهم وأسرارهم، كل ذلك يعمل عمله في اخضاع الرقاب، وكسب المؤيدين. والذي يطلع على المناصب الكبرى في هيئة الأمم المتحدة ومنظماتها سيكتشف أن الأخطبوط اليهودي الصهيوني يسيطر عليها ويوجهها خفية وجهاراً.

ولنراجع ـ على سبيل المثال ـ كتاب أسرار الماسونية للجنرال التركي رفعت أتلخان من (ص ٤٣ ـ ص ٥٠).

وكتاب «خطر اليهودية العالمية» للقائد العربي عبد الله التل، الفصل الثالث عشر.

* * *

٢ ـ الإعتماد على أحد المعسكرين:

ويقول فريق آخر: إن الطريق السليم هو الإعتماد على أحد المعسكرين الدوليين المتنازعين والاستفادة من هذا التنازع في إسترداد حقنا.

وقد أثبت الواقع أن الإعتماد المطلق على ذلك خرافة كبيرة.

فأما المعسكر الغربي، فلا جدال في أنه الذي خلق إسرائيل، وأمدها بأسباب الحياة والبقاء بعد خلقها، ولا فائدة ترتجى منه.

وأما المعسكر الشرقي، فصلته بالصهيونية، منذ قامت الثورة البلشفية في سنة ١٩١٨ لا تخفى على دارس.

ودوره في خلق إسرائيل وإبقائها ونضاله في المعترك الدولي من

أجلها لا يخفى أيضاً على أحد ممن لم يفقدوا ذاكرتهم»[1].

ومهما يكن من خلاف بين المعسكرين فقد أعلن قادتهما: أن إسرائيل إنما خلقت لتبقى.

إن المعسكر الشيوعي ـ وأعني بالذات الإتحاد السوفياتي ـ يقف مع العرب إلى مدى محدود مثل إدانة الإعتداء الإسرائيلي الأخير. وقد يساعد بأسلحته وخبراته بعض الدول العربية الموالية له في زحزحة إسرائيل عن المناطق التي احتلتها أخيراً كالشاطيء الشرقي لقناة السويس وسيناء مثلاً، لكسب نفوذ له ولدعوته ومذهبه وعملائه في داخل بلادنا.

ولكنه لن يخطو معنا أكثر من هذا. لن يؤيدنا في هدفنا الأصيل وهو تحرير فلسطين العربية المسلمة، والذي ليس له معنى إلا محو دولة إسرائيل من الشرق العربي.

ومهما يكن الموقف السياسي للاتحاد السوفييتي ودول أوروبا الشيوعية من الاعتداءات الإسرائيلية على العرب، فإن النظرة العقائدية الشيوعية إلى إسرائيل «كبلد رسخت فيه قواعد النظام الإشتراكي السليم» معروفة من قديم، ولم تتغير.

ويمكننا معرفة هذه النظرة من خلال رأي الأحزاب الشيوعية في مشكلة فلسطين المحتلة، وهو رأي طالما رددته هذه الأحزاب ولا زالت تردده صحفها في أوروبا.

---

(١) انظر كتاب «موسكو وإسرائيل» وهو دراسة مؤيدة بالوثائق لدور موسكو في خلق إسرائيل وابقائها. تأليف الدكتور عمر حليق.

وفي سنة ١٩٦٦ نشرت متجلة «رينا شيتا» ـ أي البحث ـ وهي اللسان العقائدي للحزب الشيوعي الإيطالي بحثا موضوعه: «الحل الإشتراكي لمشكلة فلسطين» وقد نشرت صحيفة «الحياة» البيروتية خلاصته في ٢٨ يناير سنة١٩٦٦ جاء فيها:

«وفي ذلك البحث حذرت المجلة الإشتراكيين العرب من القيام بأي عمل عسكري ضد إسرائيل» التي وصفتها بأنها بلد «توافرت فيه جميع قواعد النظام الإشتراكي السليم».

وقالت المجلة: «أن إسرائيل تتودد إلى الغرب اضطراراً لتحمي نفسها به من العالم العربي إذا لم يتحول إلى مجتمع إشتراكي ثوري، . وخشية أن تبقى فيه عصبيات قومية أو دينية هي سبب الخصومة بين العرب وإسرائيل.

«فإذا تم تحويل العالم العربي إلى مجتمع ثوري، زالت حاجة إسرائيل إلى الغرب والتقت مع العرب على الإشتراكية».

وجدير بالذكر أن التحذير الشيوعي للعرب من «القيام بأي عمل عسكري ضد إسرائيل في أوائل ١٩٦٦» قد تكرر على لسان السفير السوفياتي في القاهرة قبل ساعات من وقوع العدوان الإسرائيلي العنيف على العرب في ٥ حزيران ١٩٦٧».

هذا هو منطق الشيوعيين وموقفهم الفكري من هذه القضية: أن حلها يكمن في انتصار الماركسية وسيادة الشيوعية على المنطقة كلها. فإن الذي يؤجج النزاع بين العرب واليهود ليس هو عدوان اليهود على فلسطين وطناً وشعباً. بل هو وجود الرجعية والبرجوازية في الفريقين، فإذا زال الرجعيون من الطرفين، وانتصرت طبقة «البروليتاريا» أمكن

أن تقوم حينئذ أخوة اشتراكية بين العمال العرب والعمال اليهود، بعد أن ذهب الشيطان الذي يفرق بينهم!

وليس هذا المنطق وليد اليوم و لا الأمس، بل هو منطق قديم راسخ في عقلية الماركسيين، مهما يحاولوا أن يخفوه في بعض الأحيان، تبعاً لتقلبات السياسة السوفييتية في المنطقة العربية، ولنعد بذاكرتنا قليلا إلى الوارء:

«في سنة ١٩٢٦ ظهر أول شيوعي عربي في فلسطين. إنه لم يذهب إلى موسكو ليتعلم الشيوعية هناك، بل علمه الصهيونيون الذين جاءوا من موسكو لنشرها في الشرق الأوسط. وقف هذا الشيوعي يخطب في جمع من العرب يقول:

أيها الرفاق: أنتم إخوة مع اليهود فلا تقاوموا هجرتهم وإستيطانهم. يا عمال العالم اتحدوا. يجب أن نتحد مع اليهود القادمين وننشيء جمهورية شعبية وأن نحارب الإستعمار... إن الزعماء الذين يطلبون منكم محاربة الإستعمار والصهيونية ومقاومة الهجرة اليهودية هم رجعيون مخادعون. لتسقط الرجعية. لا تحاربوا الكادحين اليهود بل حاربوا الرأسماليين العرب. هذه هي أقوال أول خطيب شيوعي عربي وكان اسمه عثمان أبو طبيخ، وقد سافر بعد ذلك إلى موسكو وغير اسمه واحتل منصباً رفيعاً لأنه خدم الصهيونية بإخلاص.

كان الشيوعيون في فلسطين يزعمون أنهم يحاربون الإستعمار ولكنهم في الواقع لم يفعلوا شيئاً ضد الإستعمار بل كانوا يحاربون الحركة الوطنية العربية، ولقد كان الإستعمار حليفا لهم، ويقدم لهم الضحايا. وكان إذا اعتقل الإستعمار أحد الشيوعيين أنزله سجناً خاصاً

تتوفر فيه جميع شروط الراحة، أما إذا وقع بين يديه وطني عربي أطلق عليه الرصاص.

وعندما كان العرب يقومون بثورة ضد الإستعمار كان الشيوعيون لا يشتركون فيها، بل يهربون إلى تل أبيب ويعلنون أن هذه الثورة لا تخدم مصالح الشيوعية.

ولما قام العرب بثورتهم الكبرى في سنة ١٩٣٦ حاربها الشيوعيون وكانوا يوزعون المنشورات كل يوم ضد الثورة العربية.

ولعل الرأي العام العربي لا يعرف أن الشيوعيين من اليهود والعرب قد ألفوا منظمة ارهابية خاصة بهم هي: منظمة اشتيرن المعروفة. وإن جميع أعضائها كانوا من الشيوعيين الذين حاربوا في صفوف الصهاينة ضد العرب.

وأن معظم رجال الهاجاناه والبالماخ من أعضاء حزب المابام الشيوعي وأن يجتال آلون الذي كان يحاصر القوات المصرية في الفالوجا شيوعي صهيوني، وأن زميله اسحٰق ساديه قائد البالماخ من أقطاب الفكرة الشيوعية و مفكريها الأفذاذ. وأن كتاباته عن المذهب الشيوعي لا تقل أهمية عن كتب لينين في نظر الشيوعيين اليهود.

وعندما جاءت الحرب العالمية الثانية واتفقت بريطانيا مع روسيا بادر زعيم الشيوعيين العرب في فلسطين إلى مكتب الحاكم الإداري البريطاني وصافحه وقال: نحن حلفاء.

ولما نظرت هيئة الأمم المتحدة في قضية فلسطين وقف وزير خارجية روسيا يعلن أن حكومته يسرها الموافقة على التقسيم، ويسرها أن تشترك في تحقيق أحلام القومية اليهودية.

وأصدر الحزب الشيوعي الفلسطيني بيانا أعلن فيه أنه يرحب بالتقسيم، وبإنشاء دولة يهودية. بعد أن كان هذا الحزب يدعو للاتحاد العربي اليهودي وافق ـ إطاعة لأوامر موسكو ـ على انفصال اليهود بدولتهم.

ولما أعلن العرب رفضهم للتقسيم سافر أقطاب الشيوعيين من فلسطين إلى موسكو يطلبون العون لمحاربة «القومية العربية» فأرسلتهم موسكو إلى تشيكوسلوفاكيا حيث شحنوا من هناك عدة بواخر مليئة بالأسلحة، وأرسلوا عديداً من الطائرات الضخمة المشحونة بالأسلحة. وفي سنة ١٩٤٢ بلغ عدد الذين هاجروا من اليهود إلى فلسطين ٢٣٥٫٠٠٠ جاءوا جميعا من أوروبا الشرقية، وفي السنة التالية دخل البلاد ١٨٥٫٠٠٠ نسمة كلهم من أوروبا الشرقية»[١].

والحقيقة أن العلاقة بين الشيوعية والصهيونية ليست علاقة سطحية ولا عرضية، إنها علاقة عميقة عريقة، ترجع في تاريخها إلى أواسط القرن التاسع عشر، عندما بدأت هجرة اليهود من روسيا تتدفق نحو الغرب.

«يخطىء من يظن أن الفكرة الشيوعية قد ظهرت في روسيا، بل أنها في الواقع من وضع أولئك اليهود الذين رحلوا عن روسيا وراحوا يفكرون في غزو العالم والسيطرة عليه.

فقد وضع كارل ماركس اليهودي الفكرة الاشتراكية وراح أقطاب اليهود يفكرون في تنفيذها بما يتفق مع أغراضهم.

---

(١) كتاب «إسرائيل وكر الإستعمار» تأليف محمد عطية واكد ص ٢٥ ـ ٢٦.

ولما وضعوا خطوطها التنفيذية العلمية وجدوا أنها تصلح للتنفيذ في روسيا وأنها في حاجة إلى تحوير وتبديل كي تصبح صالحة للمحيط الروسي وتبلورت الفكرة الشيوعية في بوتقة اليهود.

ولو اطلعنا على الخطط السرية التي وضعها حكماء صهيون والتصريحات الصحيحة المؤكدة التي كان أقطاب اليهود يجاهرون بها لوجدنا أن الشيوعية من تدبيرهم. فهم يريدون نشر الإلحاد في العالم ويريدون صراعاً بين الطبقات يجمع السيطرة في أيدي نفر من الرجال الذين تستطيع اليهودية العالمية أن تدسهم وتقوي نفوذهم سواء أكانوا يهوداً أم غير يهود.

ولقد كان القاضي براندیس زعيم يهود أمريكا في القرن الماضي شيوعياً. وكان هارولد لاسكي زعيم عمال بريطانيا شيوعياً، وكان دزرائيلي، وليون بلدم، وروتشلد، وفرانكفورتر وغيرهم شيوعيين يعملون من أجل تحقيق الأغراض اليهودية المعروفة.

وتاريخ الثورة الشيوعية في أدوارها الأولى يبرهن على أنها كانت ثورة صهيونية يهودية، ويسيطر عليها اليهود الذين كانوا يمثلون المناصب الكبرىٰ مع لينين.

ولم يكن من الضروري أبداً أن يتظاهر اليهود بتسيير الشيوعية إذ أن ذلك يخلق جواً من الريبة والجفاء نحوها، ولذلك فإن اليهود كانوا يسيّرون الشيوعية سرا فكانوا يزودونها بالمال سراً وينفقون على لينين وزملائه سراً ويحركونهم للعمل سراً، ويضمون إليهم رجالا من اليهود لا يكشف الواحد منهم عن يهوديته بل يزعم أنه دولي شيوعي وهكذا

كانت الشيوعية ستاراً يخفي وراءه المؤامرة الصهيونية التي ترمي إلى السيطرة على العالم عن طريق الالحاد والفساد الإجتماعي والفوضى والصراع الطبقي»[1].

«وكانت الصهيونية تتظاهر طول الوقت بأنها على خصومة مع الشيوعية، مع أن هذه الخصومة ليست حقيقة أبداً، فإن نسبة كبيرة من اليهود الذين نقلتهم الصهيونية إلى فلسطين كانوا شيوعيين، وكانت الصهيونية تعلم ذلك وتسمح للحزب الشيوعي أن يمارس نشاطه كما يريد، وكان المؤتمر الصهيوني العالمي يضم مندوبين عن الأحزاب والمنظمات الشيوعية، وكان الشيوعيون الذين نقلتهم الصهيونية إلى فلسطين هم الذين ينشرون المبادىء الشيوعية بين العرب، وكان كل عربي يميل إلى الشيوعية ينقل إلى المستعمرات الصهيونية لكي تغذيه بالمبادىء الشيوعية. إن هذه المبادىء كانت توضع باللغة العبرية، وكان لزاماً على كل من يصبح شيوعياً أن يتعلم العبرية ليتقن بها مبادىء الشيوعية»[2].

على أن العلاقة بين الشيوعية والصهيونية ليست علاقة تاريخية فحسب، بل هي علاقة فكرية أيضاً، فإن المبادىء الشيوعية الأساسية والمبادىء الصهيونية العالمية تتشابهان وتتفقان في وجهتهما وخطوطهما العريضة.

«إن الشيوعية تدعو إلى الإلحاد بين الناس، والصهيونية كذلك.

---

(١) كتاب «إسرائيل وكر الإستعمار» ص ١٩ ـ ٢٠.

(٢) المصدر السابق ص ٢١.

والشيوعية تدعو إلى انحلال المجتمع، والصهيونية كذلك.

والشيوعية تدعو إلى نشر الفوضى والاضطراب، وكذلك الصهيونية»[1].

والشيوعية تريد من الشعوب أن لا يحسوا بالقومية والوطنية وكذلك الصهيونية.

والشيوعية تدعو للسيطرة على العالم، والصهيونية كذلك.

والشيوعية تريد تحطيم الكيان العائلي والرباط الزوجي، والصهيونية كذلك.

إنهما تلتقيان في صعيد واحد في المآرب والأهداف الرئيسية وفي المبادىء الهدامة التي تريد أن تنشرها بين الناس وإن كانت كل واحدة منهما تسير في طريقها منفردة إلا أنهما ستلتقيان على أنقاض البشرية إذا تحقق لهما الإنتصار»[2].

«لقد قالت الصهيونية في مبادئها الأساسية التي وضعت قبل ظهورالشيوعية بنصف قرن على الأقل: أنه يجب نشر الفوضى والثورات بين الشعوب وإشعال الحروب بين الأمم كي يضعفوا، وأحداث الفتن الداخلية والصراع الطبقي.

أليست هذه الأشياء هي ما تفعله الشيوعية أيضاً؟

ولقد قال حكماء صهيون أنه يجب هدم الأديان كلها وإثارة الريبة وزرع الشكوك في قلوب البشر نحو الوجود كله.

---

(١) المصدر السابق ص ٢٢.

(٢) المصدر نفسه ص ٢٢.

أليس هذا ما تقوله الشيوعية أيضاً؟ أليس هذا ما تفعله الصهيونية كذلك في أمريكا وأوروبا، وأليس معنى هذا أن الشيوعية والصهيونية تتعاونان على الوصول إلى الهدف؟

لقد نادى حكماء صهيون بالسيطرة على العالم ورسموا الخطوط العريضة لذلك، وطلبوا انتشار عملائهم في أنحاء العالم.

أليس هذا ما تفعله الشيوعية عندما ترسل عملاءها إلى قطر ليهدموه من الداخل ويهيئوه للانضمام إلى الدولية العالمية»[1].

«إن الصهيوني شيوعي في أعماق قلبه وهو يبذر المال لنشر المبدأ الشيوعي في كل مكان، فالصهيوني لا يستطيع أن يصبح غنياً ذا نفوذ وسيطرة إلا في الجو الذي تضيع فيه القيم الروحية وتنتشر الفوضى الإجتماعية. ومن مصلحة الصهيوني أن تنشر المبادىء الشيوعية بين الجماهير التي يعيش بينها فتتصارع فيما بينها، بينما هو يسير في طريقه ليجمع بين يديه المال والنفوذ والسيادة»[2]

لقد أطلنا الحديث بعض الإطالة في توضيح موقف الشيوعية من قضيتنا ونظرتها الثابتة إليها وعلاقتها بالصهيونية من قديم ، لنعرف من معنا ومن علينا. ونستبين إلى أي حد يؤيدنا المعسكر الشيوعي الحليف لبعض الدول العربية، وبهذا نقدر حقيقة قوتنا، ولا نبني قصورا في الهواء، أو نسبح في غير ماء.

أن الإتكال على المعسكر الشيوعي، كالاعتماد على الهيئات

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٢ ـ ٢٣.

(٢) المصدر نفسه ص ٢٢ ـ ٢٣.

الدولية، كلاهما لن يحرر فلسطين، ولن يرد الوطن السليب إلى أهله، ونحن معهما ﴿كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ﴾[1]

* * *

٣ ـ التعبد للعلم والمال:

وقال فريق ثالث من العرب: إن سبيل النصر ليس الإعتماد على شرق ولا غرب، ولكنها سبيل واحدة لا شريك لها، هي القوة المادية، التي تتمثل في العلم والمال. فبالعلم والمال يبني الناس ملكهم، ويستردون حقهم.

ونحن لا نختلف وهؤلاء في ضرورة اعداد القوة المادية واستخدام أقصى ما نستطيع من امكانات العلم الحديث، فهذا ما أمرنا به ديننا وما فرضه علينا ربنا. قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[2].

وقد قرر أئمة الإسلام أن كل علم يحتاج المسلمون إليه في دينهم أو دنياهم، فإن تعلمه وإتقانه فرض كفاية على المسلمين. فإذا لم يقم به عددكاف به أثمت الأمة لتفريطها في هذا الواجب.

والقاعدة التي لا خلاف عليها بين كافة المسلمين: أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. فإذا كان تحرير أرض الإسلام، والدفاع عن حوزته وحرماته لا يتم إلا بإعداد أحدث الأسلحة التي تماثل

---

(١) سورة الرعد، الآية: ١٤.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٦٠.

أسلحة العدو ـ إن لم تتفوق عليه ـ وكان إعداد هذه الأسلحة يتطلب كفاءات علمية قادرة في شتى مجالات العلوم الكونية والحيوية، فإن اعداد هذه الكفايات فريضة دينية تأثم الأمة كلها بالغفلة عنها أو التهاون في شأنها.

إن إعداد القوة المادية لا خلاف عليه. ولكن الذي نخالفه وننكره الإقتصار على هذا الجانب إلى حد «التعبد» له، كما قال بعضهم. وقد مر بنا قول ميخائيل نعيمة: «إن على العرب أن يتعبدوا للعلم والمال، ولعل العلم والمال لا يخذلانهم حيث خذلهم ربهم»!

فالخطر الذي نقاومه هنا هو عبادة القوة المادية من دون الله، والإيمان بأنها هي وحدها «الإله» الذي يخفض ويرفع، ويقول للشيء: كن، فيكون.

فهذا ـ فضلا عن انحرافه بالأمة عن عقيدتها ومنهجها، وإضلالها عن غايتها وطريقها ـ لن يؤدي إلى النصر المنشود على عدونا المتمكن في قلب وطننا.

يقول هذا الفريق من الناس: إننا بالتعبد في محراب العلم والمال نستطيع أن نتحول إلى مجتمع متمدن، مجتمع عصري، ينافس المجتمع الإسرائيلي ويسابقه في عصريته وتمدنه.

وبالعلم والمال، نصنع السلاح ونعد القوة الرادعة التي تقذف بإسرائيل في البحر.

ونسي هؤلاء أننا بالعلم والمال وحدهما لن نغلب إسرائيل.

إن إسرائيل تملك من الكفايات العلمية ما لانملكه، فكل يهودي

متخصص في العالم يعتبر جنديا في خدمة إسرائيل، ولا يعتبر من الخبراء الأجانب ما دام يهوديا. والعلم الغربي كله في خدمة إسرائيل. وكل ذهب اليهود في العالم في خدمة إسرائيل.

على أنّا دخلنا المعركة الأخيرة ـ ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ ـ بأحدث الأسلحة، وأضخم الإستعدادات فما أغنت عنا. لقيت منذ قليل أحد القادمين من سيناء، فسألته عن وقع الكارثة عليهم فقال: شيء لا يتصور، أنتم هنا سمعتم أنباءها فحسب، أما نحن فرأينا قبل أن نسمع، قلت: ماذا رأيتم؟

قال: رأينا أسلحة من أحدث طراز، تغطي الصحراء، وتسد عين الشمس، والدبابات الضخمة المجهزة التي قالوا أنها تزن ستين طناً من الصلب، أقوى المدرعات والمصفحات، . والمدافع المضادة للطائرات والدبابات، لقد كنا نمر بها وننظر إليها ونقول: هنا يكمن موت إسرائيل، لقد حان أجلها. أنها ستخر لأول هجوم تشنه هذه القوة الهائلة. . . ثم فوجئنا بهذا العتاد الضخم وهذه الأسلحة الرائعة يغادرها أصحابها دون أن يقاتلوا بها أو ـ على الأقل ـ يخربوها فلا ينتفع بها عدوهم، إذ كان أكبر همهم النجاة.

ما الذي حدث يا ترى؟ لقد صمد الذين قاتلوا بالأسلحة الفاسدة أكثر من هذا. . . ليس النصر إذن بالسلاح بل بالرجل الذي يحمل السلاح.

وقد شاهدنا الجزائريين المسلمين ينتصرون على العلم الفرنسي والمال الفرنسي، لأن الجزائريين كانوا يحاربون بدافع العقيدة الإسلامية، أما الفرنسيون فبدافع المصالح الإستعمارية، وسمعنا عن

عصابات الفيتكونغ الشيوعيين ينتصرون على العلم الأمريكي والمال الإمريكي، لأن هؤلاء الفيتناميين يقاتلون بعقيدة ـ ولو أنها فاسدة ـ قوما لا عقيدة لهم تدفعهم إلى الحرب.

لا بد من استخدام العلم إلى أبعد مدى، و لا بد من تجنيد المال إلى أقصى حد. ولكن ليس العلم هو كل شيء ولا المال كل شيء، فطالما انتصر الأميون على المتعلمين، انتصر الفقراء على الأغنياء.

يقول بن جوريون في عام ١٩٤٩ :

«كل ما يجيء به العلم الحديث لا يكفي وحده لكسب الحرب. ولن تكون الكلمة الأخيرة، للدبابة ولا للمدفع ولا للطائرة المقاتلة. إنما تكون للانسان الذي يسخّر هذه الوسائل لارادته».

ولا بأس أن نأخذ الحكمة من أفواه الصهيونيين!!

* * *

٤ ـ الوحدة:

وقال فريق رابع... إن الطريق إلى تحرير فلسطين هو الوحدة العربية، ورفع بعضهم شعار «الوحدة طريق العودة» وقالوا: بدون الوحدة لا نستطيع مواجهة إسرائيل وقد غدت ترسانة الأسلحة، وباتت على أبواب صنع القنبلة الذرية.

ولا شك أن الوحدة العربية هدف يجب السعي إليه، وهي خطوة لازمة في طريق الوحدة الإسلامية الكبرى، ولكن كيف السبيل إلى وحدة العرب، وقد تفرقت بهم المناهج والأهداف، بين يمين ويسار، وثورية ورجعية؟.

إن الذي وحد العرب قديما وجعل من قبائلهم المتفرقة أمة واحدة تواجه الأمبراطوريات الكبرى بصف لا يتزعزع، وبناء لا يتصدع، هو الذي يستطيع أن يوحدهم اليوم ويلم شملهم المبعثر. إنه الإسلام، ولا شيء غير الإسلام... الإسلام كما شرعه الله، لا كما تفسره المصالح والأهواء، وتستخدمه الأجهزة والسلطات أداة للتأثير والتخدير، وبدون العودة إلى الإسلام سينقسم العرب على أنفسهم، تبعاً للأهداف والمناهج التي يتخذونها لحياتهم، ووفقا للرايات والشعارات التي يرفعها كل فريق. ولا عجب أن نرى الدول العربية وقد صنعت هذا التصنيف الحديث: فقوم يمينيون وآخرون يساريون، وفريق ثوري، وآخر محافظ أو إصلاحي أو رجعي، وجماعة مع الشرق، وأخرى مع الغرب. وهؤلاء ليبراليون وأولئك اشتراكيون.

وداخل كل فئة تجد انقساما آخر، تبعاً للقبلة التي يولي كل فريق وجوههم شطرها.

ولا مخرج من هذا الإنقسام والتمزق إلا الإسلام.

وبدون العودة إلى الإسلام الحق ستظل الأنانيات الصغيرة هي التي تحكم، والشهوات الكبيرة هي التي تقود، ففي كل ناحية سلطان وفي كل قبيلة أمير ومنبر، ورحم الله القائل

مما يزهدني في أرض أندلس ألقاب معتصم فيها ومعتضد
ألقاب مملكة في غير موضعها كالهر يحكى انتفاخا صورة الأسد

وهذه الأنانيات و الشهوات هي التي أضاعت فردوسنا المفقود «الأندلس».

على أن الوحدة مهما يكن من وجوبها وفائدتها وخطرها، فليس

من الضروري أن يربط بها تحرير فلسطين، ربط اللازم بالملزوم، والمعلول بالعلة، كما يقول أهل المنطق، فقد يكفي قدر من التضامن الإيجابي، وقد يكفي الوحدة الجزئية بين بعض البلاد العربية دون اشتراط الوحدة الشاملة.

ومع هذا قد كان في المعركة الأخيرة ثلاث دول أو أربع تحت قيادة عربية موحدة ولكن لم يغن ذلك عنها شيئا، لأن البناء كله غير سليم، والأساس يحتاج إلى تغيير.

ولقد أجاب بعض المسؤولين العرب عن سؤال طالما وجه إلي وإلى غيري من كثيرين من العرب ومن أصدقاء العرب، . وسمعته كثيراً في تركيا وفي غير تركيا. . . هذا السؤال هو كيف انهزم ١٠٠ (مائة مليون) عربي أمام ٢ (اثنين مليون يهودي)؟

قال المسؤول: لأن المليونين عبأوا قواهم والعرب لم يعبئوا قواهم.

وهذا الرد لا يشفي الغليل، فتعبئة الدول المتحررة وحدها يجب أن يكفي بل تعبئة دولة كبيرة كالجمهورية العربية المتحدة كاف في ردع إسرائيل، ونسبة ٣٠ إلى ٢ نسبة غير قليلة أيضاً.

* * *

• الطريق الصحيح «الجهاد»:

والسؤال الذي يثب على كل لسان هو: ما الطريق إذن؟ والجواب: أنه طريق واحد لا ثاني له. أنه طريق «الجهاد» والجهاد الذي نعنيه: ليس جهاداً وطنياً ولا قومياً إنما هو الجهاد الذي لم تعرف

أمتنا غيره منذ أصبحت أمة لها مكان تحت الشمس، ولها رسالة في حياة البشر ولها دور في تاريخ الإنسان.

إنه «الجهاد في سبيل الله» تلك العبادة الإسلامية المقدسة التي لا يعدلها صيام النهار ولا قيام الليل، حتى جاء الحديث «لمقام أحدكم في الصف خير من صلاته في بيته ستين عاما».

إنه «الجهاد في سبيل الله» تلك الفريضة التي أمرت بها الأمة، كما أمرت بالصلاة والركوع والسجود ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾[1]، ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾[2].

إنه «الجهاد في سبيل الله» الذي انتصرت به هذه الأمة ـ من قبل ـ على الوثنية والمجوسية والنصرانية واليهودية.

وانتصرت به ـ من بعد ـ على الزحف التتري والغزو الصليبي إنه الجهاد الذي حققنا به انتصارات بدر وخيبر، واليرموك والقادسية، وحطين وعين جالوت وما بعد ذلك إلى الجزائر.

إنه «الجهاد الذي أضعف روحه في الأمة الأستعمار الخارجي والطغيان الداخلي، و التحلل الفكري والخلقي، الذي قذفتنا به ريح الحضارة المادية الغربية، بشقيها الليبرالي والإشتراكي.

---

(١) سورة الحج، الآية: ٧٧ ـ ٧٨.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٤١.

إنه الجهاد الذي أصبح اليوم ـ ومنذ عشرات السنين ـ فريضة عينية لإعادة حكم الإسلام واستعادة أرض الإسلام، وتوحيد أمة الإسلام تحت راية القرآن.

إنه الجهاد الذي فرطت الأمة فيه وفي الإعداد له، فغزيت في عقر دارها، وضربها الله بالذل فسيطر عليها عدوها. وحكمها من كان بالأمس محكوماً لها، حتى اليهود أجبن الناس في حرب وأحرصهم على حياة! وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾[1].

إنه الجهاد الذي نودي به في باكستان في حربها الأخيرة مع الهند، وهي أكثر عددا وعدة، فصنع الشعب المسلم الأعاجيب وكان أبناؤه يتراكضون إلى الموت ـ في لهف منقطع النظير ـ وبلغ من إيمانهم أن كثيراً من الضباط والجنود أقسموا أنهم رأوا الملائكة تنزل عليهم ساعة القتال.

ولا يستطيع أحد أن يقول: إن الملائكة وقف على أهل بدر أو الخندق أو حنين!

إنه الجهاد الذي نودي به في الجزائر، فقدم شعبها «مليون شهيد» في المعارك بين «المسلمين» والفرنسيين. ولم تلق السلاح حتى تحقق لها النصر.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٣٩.

إنه الجهاد الذي نودي به ـ على نطاق محدود ـ في سنة ١٩٤٨، فأيقظ الروح وألهب المشاعر، ورأينا من الشباب الطالب الذي يترك جامعته ليتطوع لإنقاذ فلسطين ورأينا الموظف الذي يترك ديوانه، والتاجر الذي يترك دكانه، والفلاح الذي يبيع جاموسته ـ وهي رأس ماله ـ ليشتري بها بندقية يقاتل بها اليهود.

وإن أنس لا أنس قصة «حسن الطويل» الفلاح المصري الذي تطوع وأبى إلاّ أن يبيع جاموسته ليسلح بها نفسه، فلما قيل له: يا حسن خل الجاموسة للعيال، ويكفي أنك تجاهد بنفسك وغيرك يجاهد بماله، فقال: ولكن الله لم يشتر منا أنفسنا وحدها بل اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم، وأعطاهم الثمن: الجنة، فإذا أردنا الثمن فلنسلم الصفقة!

الطريق إلى النصر وإلى التحرير هو طريق الجهاد، ولا طريق غيره، ومن لم تقنعه قوة المنطق أقنعه منطق القوة، ومن لم يسمعه صرير الأقلام أسمعه صليل السيوف.

والشر أن تلقه بالخير ضقت به ذرعا وأن تلقه بالشر ينحسم
والناس أن ظلموا بالبرهان واعتسفوا فالحرب أجدى على الدنيا من السلم

* * *

• الجهاد يقتضي تغييراً وتعبئة:

لا مفر إذن من الجهاد إن أردنا النصر.

ولكن الجهاد ليس كلمة تقال، ولا دعوى تدعى، ولا شعارا يرفع فحسب، أنه اتجاه في حياة الأمة، يصبغ أحاسيسها وأخلاقها وسلوكها صبغة جديدة.

إن هذا الجهاد يحتاج إلى إعداد وتغيير في حياة الأمة، حتى تتحمل أعباءه مطمئنة، وتتقبل تكاليفه راضية. تغيير يحول الأمة من الفراغ والسلبية إلى العمل والإيجابية، من الأنانية إلى التضحية، من أمة تتغنى بسحر العيون ورمش الجفون إلى أمة تتغنى بحب الشهادة وفن الموت في سبيل الله، من أمة تقتل أوقاتها ومعنوياتها إلى أمة تقتل أعداءها، من أمة تحب الدنيا وتكره الموت إلى أمة تحرص على الموت لتوهب لها الحياة.

إن أمة تعيش للجهاد لا بد أن تتغير حياتها كلها: سياستها... اقتصادها... مناهج التربية فيها، برامج التثقيف والترفيه.

الأخلاق والآداب، المشاعر والأحاسيس... المفاهيم والتصورات... الأنظمة والقوانين... العادات والتقاليد... كل شيء فيها يجب أن يتغير، ليلائم حياة الجهاد ورسالة المجاهدين في سبيل الله.

ولأمر ما، ظل رسول الله ﷺ ثلاثة عشر عاماً في مكة، نزل عليه فيها حوالي تسعين سورة[1] من كتاب الله ولا هم له في كل المدة إلا تربية الجماعة المؤمنة، وتغيير حياتها تغييرا جذريا، ينقلها من الجاهلية إلى الإسلام: من جاهلية العقيدة والفكر وجاهلية الخلق والسلوك إلى عقيدة الإسلام، وأفكار الإسلام، وأخلاق الإسلام، وسلوك الإسلام.

---

(١) السور المكية باتفاق ٨٢، والمدنية باتفاق ٣٠، والمختلف فيها ١٢.

كل ذلك قبل أن تتنزل عليه ـ ﷺ ـ آية واحدة تأمر بالقتال، وتدعو إلى الجهاد بالسيف والسنان.

حتى إذا نزل قوله تعلى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾[1] انطلق جنود الله، واضعين رؤوسهم على أكفهم، لا يبغون إلا إحدى الحسنيين النصر أو الجنة.

ثم أن الجهاد يحتاج إلى قاعدة للانطلاق، إلى أرض تحطمت فيها الأصنام، وخلصت لكلمة الإسلام، وكتائب الرحمن، فكانت «المدينة» هي هذه الأرض الموعودة، والقاعدة المنشودة. التي انطلقت منها كتائب الحق لتدك الباطل، وصدرت منها جحافل التوحيد، لتحرر البشر من العبودية للبشر، وتعلي كلمة الله على كلمة الطاغوت.

ومن ثم يستوجب منا الفكر القويم أن نعيد النظر في تعبئة الإمة للجهاد من جديد: تعبئتها ماديا ـ عسكريا واقتصاديا ـ وتعبئتها معنويا ـ روحيا وخلقيا وفكريا.

* * *

• التعبئة العسكرية لا تكفي:

ومعنى هذا: أن التعبئة العسكرية وحدها لا تكفي، فليس السلاح هو كل شيء في الحروب، فالسلاح يحتاج إلى اليد التي تستعمله، واليد تحتاج إلى الإرادة التي تحركها، والإرادة تحتاج إلى الإيمان

---

(١) سورة الحج، الآية: ٣٩.

الذي يدفعها . . . وما أجمل ما قال الطغرائي في ذلك :

وعادة السيف أن يزهى بجوهره وليس يعمل إلا في يدي بطل

وقال أبو الطيب :

وما تنفع الخيل الكرام ولا القنا إذا لم يكن فوق الكرام كرام

* * *

• التعبئة الإيمانية والأخلاقية:

لابد إذن من تعبئة الأمة تعبئة إيمانية وروحية وخلقية، حتى تكون على مستوى الهدف، ومستوى المعركة، وإلا فليس بمستغرب أن نرى من جديد قادة يذيبون فحمة الليل في أحفال راقصة حتى مطلع الفجر، والعدو متربص، مفتوح العينين، مشدود اليدين ليضرب ضربته في الصميم، وليس بمستبعد أن يُقدم السلاح الذي تشتريه الأمة بأقواتها هدية سائغة إلى عدوها

إن هذه التعبئة المنشودة تقتضي تغييراً جوهريا في حياة أمتنا، تغييراً يقوّم ما اعوج من أفكارها وعقائدها، ويصلح ما فسد من مشاعرها وسلوكها، ويصحح ما انحرف من أنظمتها وقوانينها، تغييراً يرجعها إلى ربها ودينها، ويردها إلى رشدها وإيمانها، ويعيدها إلى نفسها بعد أن فقدت نفسها ﴿ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾[1] .

هذه هي السُنَّة الاجتماعية الثابتة التي قررها القرآن الكريم وأكدها

---

(١) سورة الحشر، الآية: ١٩.

الواقع الماثل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1].

ليس المهم هو تغيير الأشياء المادية أو التنظيمية، مثل إعادة تسليح الجيش، وإعادة تنظيم القطاع العام، وتكوين المنظمات السياسية، وما شابه ذلك من أوضاع. فهذا كله ليس تغييراً حقيقياً. إنه تغيير عرضي يتناول الأدوار والممثلين فحسب أو يتناول الجوانب المادية فقط، وإن شئت فقل هو إلهاء عن التغيير الواجب.

أما الشيء الأهم بل الشيء الأساسي، فهو التغيير المعنوي، التغيير في القيم والأفكار والمشاعر والأخلاق، وهذا ما اعترف صناع الهزيمة أنفسهم أنهم لم يفعلوه[2]. ومحال أن يكون هؤلاء أصحاب التغيير المنشود، لأن فاقد الشيء لا يعطيه.

وهل يستقيم الظل والعود أعوج؟

لابد من تغيير معنوي تتعاون قوى الأمة وأجهزة الحكومات كلها على تحقيقه.

هذا التغيير هو ضرورة عسكرية وضرورة قومية، كما هو ضرورة دينية وأخلاقية.

لا بد من تنمية روح الإيمان، وعقلية الإيمان، وأخلاق الإيمان في الأمة التي يراد إعدادها للجهاد، فالإيمان هو السلاح الأول في معركتها. أمة بلا إيمان ستنهار لأول ضربة، وتخر صريعة لأول

---

(١) سورة الرعد، الآية: ١١.

(٢) قال رئيس تحرير الأهرام في مقال الجمعة ١١ اكتوبر ١٩٦٨: إن التغيير حدث فيما هو مادى ولم يحدث فيما هو معنوي إلا بصورة ضئيلة.

صدمة. والإيمان هو الذي يقاوم اليأس في قلوبها، والخلل في صفوفها، والطراوة في حياتها، والوهن في نفوسها، وأول الوهن حب الدنيا وكراهية الموت والأمة التي تريد أن تحيا لا بد أن تحرص على الموت حتى تستحق العيش. هكذا كان سيف الله خالد بن الوليد يبعث بكتبه إلى قواد الفرس والروم ليدعوهم إلى الإسلام أو الجزية أو القتال، ثم يختم كتبه بقوله: وإلا جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة!

وفي حالة الصراع بين الأمم تنتصر الأمة التي لها عقيدة ـ أيا كانت ـ على الأمة التي لا عقيدة لها ـ أو كان لها عقيدة تخلت عنها.

فالأمة المؤمنة بعقيدتها ـ أياً كانت ـ تنتصر على الأمة التي أصابها الشك والتذبذب، وباتت تتقاذفها التيارات، تميل بها إلى الشرق والغرب واليمين واليسار، كالكرة بين أرجل اللاعبين، لا تستقيم على اتجاه ولا يقر لها قرار.

* * *

• الأساس الديني لإسرائيل والصهيونية:

في معركتنا مع الصهيونية العالمية ـ بصورة خاصة ـ يلزمنا الإيمان أكثر من معركة أخرى. ذلك أن عدونا يسلح جنوده وأبناءه بعقيدة دينية، ودوافع دينية، وأحلام دينية، ولهذا اختار وطنه القومي في «أرض الميعاد» وسماها «إسرائيل» وأعلن بن جوريون أحد قادتها أن لا معنى لإسرائيل من غير القدس، ولا معنى للقدس بغير الهيكل!! وبعث برسالة إلى ديجول قال فيها: إن التوراة هي أساس جميع الأعمال التي تتخذها إسرائيل.

وسئل موشي ديان: هل كنتم تشعرون أن الله معكم في معركة ٥ حزيران؟ قال: كنا نشعر أننا في جانب الله!

وقال مرة: إن جيشنا ليست مهمته الأساسية حماية الصناعات.. إنما رسالته حماية المقدسات وعلى هذا الأساس يتدرب ويقاتل.

إن فلسطين في نظر اليهود تسمى «أرض الميعاد» أي الأرض التي وعد الرب بها بني إسرائيل، ويرجع هذا الاعتقاد إلى ما ورد في التوراة أن الرب قد أعطى إبراهيم عهداً قائلاً له: «لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير، نهر الفرات».

وهذا النص هو الأساس الديني لتعلق اليهود بفلسطين ومطامعهم فيها، ومطالبتهم بها. يقول الدكتور حاييم وايزمن أحد أقطاب الحركة الصهيونية وأول رئيس لدولة إسرائيل:

«إن الشعور الديني هو مصدر الصهيونية والحافز لقيامها. هذا الشعور الناجم عن التقاليد والمعتقدات اليهودية، والمبني على أقدم الذكريات للبلاد التي نشأت فيها الحياة اليهودية الأولى والتي مارس فيها اليهود حريتهم».

ولا عجب إن كان مما يقوله اليهودي في صلاته: لتنسني يميني إن نسيتك يا أورشليم.

ومن الغريب أن بعض الناس يتجاهلون الحقائق الملموسة، ويحاولون أن يصفوا الحركة الصهيونية بأنها حركة سياسية علمانية مجردة، وأن الصهيونية شيء واليهودية شيء آخر أعم منها فكل صهيوني يهودي، وليس كل يهودي صهيونياً.

وهذا كلام خاطيء أو مضلل. فقد أثبتت الوقائع والأيام والتصريحات المختلفة لزعماء الصهيونية والمواقف المختلفة ليهود العالم: أن الصهيونية حركة يهودية عالمية، وأن اليهودية والصهيونية متلازمتان ولا يمكن أن يفترقا. وأن كل يهودي هو في الواقع صهيوني.

ولقد عرف بعض كتاب اليهود الصهيونية بأنها: «إيمان باليهودية وما تعنية من مفاهيم فكرية وتاريخ وعادات من الناحية النظرية، ثم الهجرة إلى فلسطين للإقامة فيها بقصد بناء الدوله من الناحية العملية». ويقول حاييم وايزمن: «أن يهوديتنا وصهيونيتنا متلازمتان متلاصقتان، لا يمكن تدمير الصهيونية بغير تدمير اليهودية»[1].

ويقول بن جوريون:

إن الصهيونية تستمد وجودها وقوتها من مصدرين:

١ ـ المصدر الأول مصدر عاطفي دائم ـ مستقل عن الزمان والمكان، قديم قدم الشعب اليهودي ذاته، إنه يتمثل في الوعد الإلهي والأمل في العودة، ذلك الوعد الذي يتمثل في قصة اليهودي الأول الذي أبلغته السماء أن «سأعطيك وذريتك من بعدك جميع أراضي بني كنعان ملكاً خالداً لك».

٢ ـ والمصدر الثاني هو الفكر السياسي للشعب اليهودي... إلخ».

وفي المؤتمر الخامس والعشرين للصهيونية العالمية، والذي عقد

---

(١) الصهيونية وربيبتها إسرائيل ـ تأليف عمر رشدي ص ٥٤.

في القدس المحتلة في ٢٥ ديسمبر ١٩٦٠، تحدث بن جوريون في ختامه، وهو رئيس حكومة إسرائيل حينئذ قائلاً:

«إن كل يهودي يجب أن يهاجر إلى إسرائيل وأن كل يهودي أقام خارج إسرائيل منذ انشائها، يعتبر مخالفاً لتعاليم التوراة، وأن هذا اليهودي يكفر يوميا باليهودية»[1].

ترى أهذه فتوى حاخام أم رأي زعيم سياسي؟.

ويقول المفكر اليهودي «سولمون شيختر»: «حيثما يكون الصهيونيون عاملين نشيطين، تكون اليهودية حية فعالة».

ويقول زعيم الحركة الصهيونية الأول تيودور هرتزل موضحاً الرابطة بين اليهودية والصهيونية:

«إن العودة إلى صهيون يجب أن تسبقها عودة إلى اليهودية».

هذا ما قرر في المؤتمر الصهيوني الأول الذي عقد في بال سنة ١٨٩٧.

ولا عجب أن تكون أول دبابة تدخل سيناء تحمل آية من التوراة! وأن يكون شعار المقاتلين اليهود الذين دخلوا القدس: يا لثارات خيبر!

وأن يكون أول ما يصنعه زعماء اليهود بعد الأستيلاء على القدس هو الذهاب إلى حائط المبكى. وأن يكون أكبر همهم الآن هو تشييد هيكل سليمان. على انقاض المقدسات الإسلامية.

---

(١) المصدر نفسه.

هكذا نرى عدونا يدخل الإيمان الديني بكل قوته في المعركة، ولا يخشى أن يتهم بالرجعية، أما نحن فنتجهم في وجه الدين، ونضيق على دعاته، وقد نكافئهم بسياط التعذيب أو بحبال المشانق! ونفسح صدور صحفنا وأجهزة إعلامنا لتشتم الذات الإلهية أو تجحد النبوات والأديان، في أرض هي مهد النبوات ومنبت الديانات.

لقد قال الخليفة الأول أبو بكر الصديق لقائده المظفر خالد بن الوليد في إحدى وصاياه: حارب عدوك بمثل ما يحاربك به: السيف بالسيف و الرمح بالرمح.

وهذا منطق لاغبار عليه من الوجهة العسكرية المحضة فإذا كان عدوّنا يحاربنا بالدين حاربناه بالدين أيضاً، فإذا جند عدونا جنوده باسم «يهوه» إله إسرائيل. جندنا جنودنا باسم الله رب العالمين. وإذا دفع جنوده باسم اليهودية، دفعنا جنودنا باسم الإسلام. وإذا قاتلنا بالتوراة قاتلناه بالقرآن.

وإذا جاءنا تحت لواء موسى، جئناه تحت لواء موسى وعيسى ومحمد، فنحن أولى بموسى منهم، وإذا ذكروا نبؤات «أشعيا» ذكرنا نحن أحاديث البخاري ومسلم.

وإذا حارَبَنَا من أجل الهيكل حاربناه من أجل المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله.

وإذا قال عدونا لجنوده: أنتم شعب الله المختار، قلنا لجنودنا: أنتم خير أمة أخرجت للناس. وبهذا نكون نحن المتفوقين، لأننا أصحاب الدين الأقوى، ولا يفل الحديد إلا الحديد.

إن أثر التعبئة الإيمانية أو الدينية في خلق «الروح المعنوية» وتقويتها لدى الجندي المقاتل، أمر لا يجحد، حتى أن الروس الشيوعيين أنفسهم اضطروا في الحرب العالمية الثانية أن يسمحوا للدين ورجال الدين بالحركة والحرية ليرفعوا الروح المعنوية للشعب وللجيش، وهم الذين تقوم فلسفتهم على أن الدين خرافة، وأن الدين مخدر.

وإذا أردنا الأستدلال على أثر الإيمان في المعارك فالمجال ذو سعة، ولا أريد هنا أن أكتب عن بدر وغيرها من غزوات الرسول، ولا عن اليرموك والقادسية وغيرهما من معارك الفتح الإسلامي، ولا عن حطين وعين جالوت من معارك المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي والتترى.

إنما أكتفى هنا بمثل واحد من حياتنا المعاصرة:

هذا المثل: من أرض فلسطين نفسها سنة ١٩٤٨، من بطولات المتطوعين. الذين صنعوا العجائب، وحققوا ما يشبه المعجزات، على الرغم من ضعف الإمكانات، وقلة المساعدات، وسوء الأوضاع المحيطة.

وكيف لا وقد خرجوا يطلبون الشهادة، ويسعون إلى الموت ركضاً، حتى قال أحد اليهود لضابط مصري[1] كان أسيراً لديهم: نحن لا نخاف أي قوة كما نخاف من هؤلاء المتطوعين. فسأله: وما الذي يخيفكم منهم؟ قال اليهودي: لقد هاجرنا وجئنا من بلاد شتى إلى هذه الأرض لنعيش، وهؤلاء جاءوا ليموتوا!

---

(١) هو الضابط المجاهد معروف الحضري.

أجل. لقد دخل هؤلاء أرض فلسطين وليس لهم هدف ولا أمل إلا إحدى الحسنيين: النصر أو الجنة، فكيف يخافون الموت أو يرهبون العدو؟.

لا بد من التعبئة الإيمانية للأمة إذا أردنا النصر، ولا تتم التعبئة الإيمانية إلا بالتعبئة الأخلاقية، فالأخلاق ثمرة الإيمان، وأكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقا. ولا إيمان لمن لا أمانة له ولا عهد لمن لا خلق له.

فإذا لم ترب في الأمة معاني الخشونة والتضحية والصبر على المكاره، والانتصار على الشهوات والاستعلاء على الغرائز، والعفة عن الحرام، والبعد عن الميوعة والطراوة وأخلاق المخنثين، والمتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال ـ فهيهات أن نصمد في وجه العدو أو نصبر علىٰ حر المعركة، أو نحتمل شظف الجهاد.

إن الأمم تبقى ببقاء الأخلاق فيها، وتذهب بذهابها فإذا كنا نريد أن نغسل عار نكبتين، فلنغير أخلاقنا من أخلاق الضعف إلى أخلاق القوة، من أخلاق العبيد إلى أخلاق الأحرار، وبعبارة أخرى من أخلاق الفجار إلى أخلاق المؤمنين.

وجماع أخلاق المؤمنين ما عرف في الإسلام باسم «تقوى الله» التي فهمها بعض الناس خطأ، فحسبوها ضربا من الدروشة أو العزلة أو السلبية في مواجهة الحياة والناس. وما هي إلا ضمير أيقظته خشية الله، يدفع صاحبه إلى التحلي بمكارم الأخلاق، والتخلي عن سفاسفها، في معاملة الحق أو معاملة الخلق.

إن عمر بن الخطاب لم يكن «درويشاً» ولا «مجذوباً» حين بعث إلى قائد جيوشه سعد بن أبي وقاص وهو يواجه جيوش كسرى، بقوله: «يا سعد. أوصيك ومن معك بتقوى الله عز وجل. فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو، وأقوى المكيدة في الحرب. . . وأعلم أن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم. وأنّا لا ننتصر على عدونا بعدد ولا عدة، فعددنا ليس كعددهم ولا عدتنا كعدتهم. وإنما ننتصر بمعصية عدونا لله وطاعتنا له، فإذا استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة. وإلا نغلبهم بطاعتنا لم نغلبهم بقوتنا».

وبهذه الأخلاق ـ أخلاق ـ المتيقن، وأخلاق النبوة ـ انتصر المسلمون على دول كانت أكثر منهم عدداً وأعرق حضارة وأشد قوة.

يحكي لنا ابن كثير في تاريخه «البداية والنهاية» أن هرقل أمبراطور الدولة البيزنطية، حين قدمت عليه منهزمة الروم وهو على أنطاكية، قال لهم:

«ويلكم، أخبروني عن هؤلاء القوم الذين يقاتلونكم أليسوا بشراً مثلكم؟ قالوا بلى. قال: فأنتم أكثر أم هم؟ قالوا: بل نحن أكثر منهم أضعافا في كل موطن، قال: فما بالكم تنهزمون؟ فقال شيخ من عظمائهم: من أجل أنهم يقومون الليل ويصومون النهار ويوفون بالعهد ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويتناصفون بينهم، ومن أجل أنا نشرب الخمر ونزنى ونركب الحرام، وننقض العهد ونغضب ونظلم ونأمر بالسخط وننهى عما يرضي الله ونفسد في الأرض، فقال: «أنت صدقتني».

وسأل هرقل هذا رجلاً كان قد أسر مع المسلمين فقال: أخبرني

عن هؤلاء القوم، فقال: أخبرك كأنك تنظر إليهم، هم فرسان بالنهار رهبان بالليل، ولا يأكلون في ذمتهم إلا بثمن، ولا يدخلون إلا بسلام، ويقفون على من حاربوا حتى يأتوا عليه، فقال: لئن كنت صدقتني ليملكن موضع قدمي هاتين.

ووصف رجل من الروم المسلمين لرجل من أمراء الروم فقال: جئتك من عند رجال دقاق يركبون خيولاً عتاقاً، أما الليل فرهبان وأما النهار ففرسان، يريشون النبل ويبرونها ويثقفون القنا، لو حدثت جليسك حديثاً، ما فهمه عنك[1] لما علا من أصواتهم بالقرآن وبالذكر، قال: فالتفت إلى أصحابه وقال «أتاكم من لا قبل لكم به».

إن أمتنا انتصرت قديما على اليهود وطهرت جزيرة العرب من شرهم، لأنها كانت الأمة الأقوى إيماناً وأخلاقاً.

كان اليهود أحرص الناس على حياة ـ كما وصفهم القرآن ـ وكنا أحرص الناس على الموت في سبيل الله.

كانوا ـ كما وصفهم الله: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾[2] وكنا كما خاطبنا الله تعالى: ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾[3].

كانوا كما خاطبهم القرآن: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾[4] وكنا كما وصف الله المؤمنين: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا

---

(١) كتاب «إلى الإسلام من جديد» تأليف السيد أبو الحسن الندوي، ص ٦٣ ـ ٦٤ دار الإرشاد (بيروت).

(٢) سورة الحشر، الآية: ١٤.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٠٣.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٧٤.

ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾[1].

كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه، وكنا كما خاطبنا ربنا: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾[2].

كانوا يعبدون الذهب. حتى انهم عبدوا عجلاً اتخذ من حلي. وكنا نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئا، ولا أحداً.

وكانوا كما خاطبهم الحق تعالى ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾[3] وكناكما خاطبنا جل جلاله ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾[4].

كانوا يأكلون الربا وقد نهوا عنه ويأكلون أموال الناس بالباطل. وكما نحرم الربا قليله وكثيره، ونخاف الدرهم الحرام، واللقمة الحرام. فإن كل ما نبت من حرام فالنار أولى به.

كانوا يقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس، وكنا نحن حماة الرسالات. والذائدين عن حمى الدعوات.

أما الآن فقد تغيرت أنفسنا عما كانت عليه. وأصابنا رذاذ من أخلاق اليهود. ورذائل اليهود الحرص على الحياة، التفرق، القسوة والأنانية، تحريف الكلم عن مواضعه، والإيمان ببعض الكتاب دون

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٨٥.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ١١٩.

بعض . . . أكل الربا، قتل الدعاة إلى الله، السكوت على الفساد وعدم التناهي عن المنكر.

فاستوينا مع اليهود في الرذيلة والمعصية، وكان لهم الفضل علينا في مجالات أخرى: في التخطيط والتنظيم وحسن التعبئة لكل القوى المادية والبشرية.

بل أقول: إن اليهود قد سرقوا بعض أخلاقنا وبعض فضائلنا. في الوقت الذي نقلوا هم إلينا رذائلهم القديمة أو نقلناها نحن راضين مختارين، بعد أن حقنوها بالحقن الفكرية المخدرة التي تجعلنا نستسلم لكل ما يضعونه لنا من أزياء و«مودات» لنسائنا مما عند الركبة. وفوق الركبة وما فوق فوق الركبة. . . ومن تقاليع تدمّر شبابنا، وتميت فيهم كل روح للخشونة والجهاد.

إن اليهود الذين عرفوا بعبادة الذهب أصبحوا يبذلون الملايين عند الحاجة لتحقيق فكرتهم وبناء دولتهم. وأغنياؤنا مشغولون بالرحلات المترفة إلى أوروبا وغيرها حيث ينفقون مئات الألوف على اللهو والفراغ والعبث والمجون، أو الدعاية الجوفاء، فإذا طالبتهم ببذل دفعوا لك دراهم معدودات، لا تسمن ولا تغني من جوع!!

إن اليهود «الجبناء» قد دربوا أبناءَهم ـ بل وبناتهم ـ على أن يكونوا جميعاً حين يدوي النفير جيشاً مقاتلاً. لا يتخلف منهم أحد، وأبناؤنا وبناتنا ـ نحن المهزومين ـ مشغولون بأغاني شادية وصباح وعبد الحليم حافظ!!

فلا غرابة بعد ذلك إذا خذلتنا رذائلنا، وانتصر اليهود علينا فإنما

هو انتصار للقوة على الضعف ، وللنظام على الفوضى. وللبذل على البخل، وللجد على الهزل، وللعمل على الفراغ.

* * *

• تعبئة ننادي بها جميع الفئات:

أن التعبئة الدينية الأخلاقية للشعب وللجيش أصبحت أمرا ينادي به جميع الفئات الواعية من العرب والمسلمين.

ولا زال في آذاننا صوت وكيل الخزانة في القاهرة الذي وقف يقول في أحد المؤتمرات «لابد من إدخال الدين في المعركة، فإن اليهود يقاتلوننا انتقاماً لهزيمتهم في خيبر وغيرها».

فهو رأي لم يدع علماء الدين فحسب بل دعا إليه رجال مدنيون في جميع القطاعات، ولم يناد به المدنيون فحسب، بل نادى به القادة العسكريون أيضاً.

فهذا القائد الأردني السيد عبد الله التل، يرسم سبيل النجاة كما يراه في قضية فلسطين[1] فيقول:

أولاً - يجب أن نخوض معركة فلسطين على أساس الجهاد الديني، ذلك لأن فلسطين بلد إسلامي مقدس، كل شبر فيه ممزوج بدماء الصحابة والمجاهدين، يضم المسجد الأقصى وأولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين، الذي أسري بالنبي الكريم إليه، ويضم مسجد الصخرة، ومئات المساجد والمقامات الإسلامية الأثرية

---

(١) في كتابه «خطر اليهودية على الإسلام والمسيحية».

المقدسة، ويضم كذلك المقدسات المسيحية وأهمها قبر المسيح ومهده.

ثانياً ـ أن فلسطين ليست بلداً عربياً اغتصب فحسب، وإنما هي بلد إسلامي بالدرجة الأولى، لأنها تعد مهوى أفئدة ٧٠٠ مليون مسلم، ويقدسونها كما يقدسون مكة المكرمة والمدينة المنورة، وهي ليست ملكاً لعرب فلسطين وحدهم ولا للأمة العربية وحدها وإنما هي ملك جميع المسلمين. وواجب الدفاع عنها فرض عين على كل مسلم على وجه الأرض».

بل أقول... إن هذه التعبئة لم يدع إليها المسلمون وحدهم، بل دعا إليها الواعون المخلصون من المسيحيين العرب أيضاً.

يقول الكاتب العربي المسيحي الأستاذ حبيب جاماتي:

«لقد حان الوقت لكي تركز الدعاية العربية ضد الصهيونية على المشاعر الدينية، بعدما ظلت إلى الآن مركزة على نواح كثيرة أخرى ما عدا الدين.

«إن الدعوة الصهيونية قامت على الفكرة الدينية وعلى الشعور الديني وعلى التعصب الديني وعلى إثارة النعرة الدينية دون غيرها من النعرات، وما الناحية العنصرية في تلك الدعوة غير مظهر من مظاهر التعصب الديني. ففي الشرق الأدنى الآن بقعة من الأرض العربية سرقها اليهود باسم الدين، وأنشأوا فيها دولة قائمة على الدين ولا يزالون يبثون في أنحاء العالم دعايتهم المنبعثة من الدين.

وبناء على أن مقاومة السلاح بمثله من البديهات التي لا تتطلب

تفكيراً، ولا تستحق جدلا . . . وبناء على أن العرب حتى الآن قد بنوا دعايتهم المضادة لدعاية اليهود على أسس وحجج ودعائم وحقائق سياسية واقتصادية واجتماعية وتاريخية تاركين الناحية الدينية جانباً، فأن الحالة الخطيرة التي وصلت إليها قضية فلسطين من جراء ذلك كله تتطلب الآن أن يعمد العرب إلى نفس السلاح الذي استخدمه اليهود ضدهم . . . «وهو إثارة النعرات الدينية ليقابلوا بها النعرة الدينية اليهودية»[1].

وهذه الكلمات الصريحة الناصعة تبطل كل حجة لأولئك الذين يريدون إبعاد الدين وإخفاءه مجاملة لأخواننا النصارى الذين قد يسوءهم ذكر الإسلام، و تعبئة المشاعر باسمه وتحت رايته، وما أصدق ما قاله السياسي المصري مكرم عبيد: أنا نصراني دينا مسلم وطنا.

* * *

• الدين غاية تقصد لا أداة تستغل:

وأود أن أنبه هنا أننا لا نريد استغلال الدين لمعركة وقتية ثم نرمي به في سلة المهملات بعد ذلك، أي اتخاذ الدين مطية لغرض موقوت لا غاية في نفسه، فإن هذا أهانة للدين، وانحطاط برسالته في الحياة، والدين الذي يتخذ أداة لكسب سياسي لا يثير نفسية شعب، على أن شعبنا ذو حساسية مرهفة من هذه الناحية، فما أن يشعر بأن الدين مستغل للسياسة والسلطان حتى ينفر من المتمسحين به، والمتحدثين

---

(١) مجلة الشبان المسلمين ـ القاهرة عدد ابريل سنة ١٩٦٤.

باسمه، وهنا لا يفيد استخدام الدين سلاحا في المعركة كما يراد له.

ولهذا فنحن لا نريد التمسح بالدين على طريق التصنع والتمثيل والشعوذة وإنما نريد عودة حقيقية إلى الدين. ورجوعاً حقيقياً إلى الله، تزكو به الأنفس وتطهر الأيدي، وتنظف به الحياة، وتستقيم الأخلاق والمشاعر والأفكار والأعمال.

إن الناس ـ مع الله ـ أصناف ثلاثة: خيرهم الذي يعرف الله في السراء فيعرفه تعالى في الضراء والبأساء، كما في الحديث «احفظ الله يحفظك، واحفظ الله تجده تجاهك، تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة».

ودون ذلك الذي ينسى الله في الرخاء والعافية فإذا صدمته النوائب أفاق من سكرته، وصحا من غفلته، ووقف على عتبة ربه منيبا إليه ضارعا يقول: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾[1].

وفي المشركين أنفسهم كثير من هذا الصنف الذي وصفه القرآن فاحسن الوصف إذ قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾[2].

فقد نسي هؤلاء في ساعة الكربة. آلهتهم وأصنامهم ولم يذكروا إلا الله وحده.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٣.

(٢) سورة يونس، الآية: ٢٢.

وشر الأصناف الثلاثة . . . ذلك الذي عمى قلبه وطمست بصيرته، فلم يعرف الله في رخاء ولا شدة، و لم يذكره في سعة ولا ضيق، ولم يقرع بابه رغم ما نزل به من ضرر وما حل بساحته من بلاء جدير بأن يوقظ قلبه، ويذكره به، ولكن لم تغنه الآيات والنذر.

فهذا الصنف هو الذي جاء فيه قول الله سبحانه: ﴿ ۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾[1].

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾[2].

ونحن لا نرضى أن نكون شر الأصناف الثلاثة، فإذا لم نكن خيرها وأفضلها فلنكن الصنف الثاني الذي يتعلم من أيام الله، ويزدجر بالحوادث والقوارع فيرجع ويتوب.

إن الله لا ينزل البلاء بالناس رغبة في تعذيبهم والانتقام منهم، كلا، إنما هو لون من الأدب الإلهي لهم ليتوبوا ويستقيموا، وإنذار لهم ليفيقوا ويهتدوا كما قال سبحانه: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾[3].

فالله تعالى لا يؤاخذهم بكل ما كسبوا من ظلم، ولا يذيقهم كل ما

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٧٥ ـ ٧٦.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٤٢ ـ ٤٣.
(٣) سورة الروم، الآية: ٤١.

عملوا من اثم ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾[1] ولكن يذيقهم ﴿ بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ ﴾[2] ولماذا؟ ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾[2].

فإذا لم ترجع الأمة إلى ربها بعد نكبة ونكبتين، وطامة وطامتين فمتى ترجع؟ ومتى تئوب؟.

ترى هل نحن في حاجة إلى نكبة أخرى، أو نكبات أخر، ليصحو السكارى ويتنبه الغافلون، ويجدّ الهازلون، ويهتدي الضالون؟.

أليس من المحزن أن لا تزال الأقلام الملحدة تناوش الدين وتتطاول على ذات الله وذات رسله؟.

بلى، وقد قرأنا في كتاب لأحد التقدميين جداً[3].. أسماه «من النكسة إلى الثورة» قال فيه:

«إن العالم سيجد نجاته ـ إن كان من الممكن ـ ذلك عن طريق المتمردين، فبدونهم ستلقى حضارتنا وثقافتنا وكل ما نحب نهايته... فهؤلاء المتمردون هم ملح الأرض، ومسؤولون عن الله، لأنني مقتنع بأنه لم يوجد بعد، وإن كان علينا أن نخلقه».

فهل تنتصر أمتنا بهؤلاء الثوريين المتمردين على الله وعلى شرائعه ورسالاته؟ أم نسير من نكسة إلى نكسات، ومن كارثة إلى كوارث؟.

أليس من المخجل أن تظل هذه الأفكار تجد من ينشرها ومن يقرأها بعد أن قرعتنا النذر، وجاءنا من الأرزاء ما فيه مزدجر؟.

---

(١) سورة النحل، الآية: ٦١.

(٢) سورة الروم، الآية: ٤١.

(٣) نديم البيطار.

إن هؤلاء الثائرين «على الله»، «المتمردين» على القيم العليا، الخارجين على الأمة، المرتدين عن صراطها... لم يكونوا ـ ولن يكونوا ـ يوما رجال فداء ولا أبطال قتال.

ولن تتحرر فلسطين وينتصر العرب بهؤلاء أبداً.

ولن تتحرر فلسطين وتزول إسرائيل بتاركي الصلوات ومتبعي الشهوات.

لن تتحرر فلسطين بالعابثين من شرّاب الخمور وعشاق الفجور.

إني على يقين أن إسرائيل لن تزول، وفلسطين لن تتحرر، إلا على أيدي المؤمنين الصادقين، الراكعين الساجدين، الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، والحافظين لحدود الله، الذين يخوضون المعارك أطهاراً متوضئين، قد توضأت قلوبهم قبل أن تتوضأ أعضاؤهم.

أولئك الذين لا يقف لهم أحد، ولا تصمد أمامهم قوة إذا نادى فيهم المنادي: هبي ياريح الجنة، يانصر الله اقترب. يا رجال القرآن زينوا القرآن بالفعال.

أولئك الذين يثورون على التفكير المادي، ويسخرون من لغة الأرقام، ولا يعبأون بما لدى العدو من «كم» واثقين بما معهم من «كيف»، قد اتسع أفقهم فتجاوزوا الأرض إلى السماء، وتخطّوا عالم الشهادة إلى عالم الغيب. آمنوا بأنهم إن فقدوا ولاية الناس ونصرة العالم، فإن معهم الله جل شأنه: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾[1]

---

(١) سورة النساء، الآية: ٤٥.

ومعهم جنود الله ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾[1] أولئك هم الذين ستتحرر بهم فلسطين، وتقتلع بهم جرثومة اليهودية من أرض الإسلام ليس لهؤلاء هدف إلا إعلاء كلمة الله، ولا عنوان إلا الإسلام، ولا شعار إلا العبودية لله، ولا هتاف إلا «الله أكبر».

وإلى هؤلاء المحاربين المؤمنين أشار رسولنا ﷺ في حديث له حيث قال: «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون، حتى يختبيء اليهودي وراء الحجر والشجر فيقول الحجر والشجر: يامسلم... يا عبد الله... هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله» [رواه مسلم].

هؤلاء هم قتلة اليهود ومحررو فلسطين. إنهم «المسلمون» لا الاردنيون ولا السوريون ولا الفلسطينيون ولا العرب، فقد تخلوا عن هذه العناوين، ولم يبق لهم عنوان إلا «المسلمون».

هؤلاء هم الذين تكون الطبيعة كلها في صفهم حتى الحجر والشجر.

هؤلاء هم الذين يناديهم الحجر والشجر: «يامسلم». «يا عبد الله».

فليس لهم راية إلا الإسلام، وليس لهم شعار إلا العبودية لله وحده.

هذا هو المقاتل الذي ترتجيه الأمة، وهو الذي سيزيل ملك إسرائيل والذي سيقتل اليهود، وكما نبأنا من لا ينطق عن الهوى. إنه

---

(١) سورة المدثر، الآية: ٣١.

«المسلم» . . . المسلم الذي خالطت قلبه بشاشة الإيمان، واتقدت بين جوانحه شعلة اليقين، وباع الحياة الدنيا بالآخرة وليس المسلم «الجغرافي» الذي ورث الإسلام من أبويه كما ورث اسمه ولقبه، فليس له من الإسلام إلا العنوان والتسجيل في شهادة الميلاد.

إنه «عبد الله»، وأما عبد الشهوات، عبد المرأة، عبد الكأس، عبد الدينار والدرهم، عبد المبادىء المستوردة من صناعة اليهود، عبد الأفكار الدخيلة التي يتحفنا بها اليهود، وفروخ اليهود. . . أما هذا فلن يتحقق به نصر، ولن تتحرر به أرض، ولن ترتفع به لأمتنا راية، وليس من ورائه . . . إلا النكسات والوكسات . . .

* * *

• التعبئة الفكرية:

ومع التعبئة الإيمانية والأخلاقية لا بد من تعبئة فكرية.

لابد من تثقيف الأمة حتى تعي حقيقة نفسها وحقيقة عدوها.

إن الأمة لا تنتصر إلا إذا أدركت درجة من الوعي بذاتها، يكشف لها عن مشخصاتها وعن رسالتها وأهدافها، وما يميزها عن عدوها.

وضد هذا الوعي هو الغفلة، التي جعل القرآن أصحابها أضل من الأنعام سبيلا، وأخبر عنهم بأنهم حطب جهنم، ووقود للنار ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾[1].

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩.

والمسلمون الأوائل كانو أبعد الناس عن «الغفلة» وأوفاهم حظا من «الوعي» الذي سماه القرآن «الفقه» أو «العقل».

كان المسلمون يعرفون من هم، وما غايتهم، وما رسالتهم على ظهر الأرض، ومن هو عدوهم الذي يقاتلون... وكان مقاتلوهم لا يفقهون شيئا من ذلك إلا ما يصب في آذانهم تلقينا كأنهم الببغاوات.

والذي يقرأ القرآن الكريم تتضح له هذه الحقيقة جلية ناصعة فها هو يخاطب الرسول بعد غزوة بدر، فيقول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾[1].

علل غلبة المؤمنين على الكفار، رغم قلة عدد المؤمنين (١ : ١٠) بأن الكفار قوم لا يفقهون، فهى غلبة مفهومة، جارية على سنن الله في كونه.

ويخاطب المؤمنين في شأن اليهود فيقول ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾[2].

ولقد رأينا مصداق ذلك في فتوح الإسلام وشاهدنا الأعرابي البسيط الذي لم يتخرج في مدرسة، ولا اختلف إلى المعلمين يقول لرستم قائد الفرس وقد سأله من أنتم؟ فيقول بملء فيه: نحن قوم

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٦٥.

(٢) سورة الحشر، الآية: ١٣ ـ ١٤.

ابتعثنا الله لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

هذا هو «الفقه» الذي تنتصر به الأمم وتعلو كلمتها. وهو فقه لا ينبت ولا ينمو إلا في ظلال الأيمان وأخلاق الإيمان.

فإذا انقلبت الأوضاع وأصبح المسلمون أقل فقها وأضعف وعيا، وبات أعداؤهم أكثر منهم وعيا، وأنضج فكراً، فلا بد أن يميل الميزان ويتغير اتجاه الريح ويصير الظفر للذين يعون ويفقهون، لا للذين يصيحون ويهرجون، والموتى الذين لا يشعرون أيان يبعثون.

إن التعبئة الفكرية لا تكون بالثقافة المسمومة التي يصدرها إلينا اليهود وتلاميذ اليهود، من أمثال فرويد ودوركايم وماركس ولينين[1] وسارتر وغيرهم من الأصنام المعبودة عند «التقدميين» من كتابنا ومثقفينا.

إن هذه البضاعة اليهودية الملوثة ليست هي «الفقه» الذي ننشده لأمتنا ولا الثقافة التي نرتجيها إليها.

ومن المحال أن نطلب من الأمة التحرر من براثن اليهود في الوقت الذي تتلمذ فيه على أفكار اليهود، وثقافة اليهود ونزعم لأنفسنا حرية الفكر، ونحن لهذا الفكر الأجنبي الغازي أسارى بل عبيد.

فإذا كنا نريدها تعبئة فكرية حقاً، فلنحرر مصادر معرفتنا من آثار

---

(١) انظر فصل «اليهود الثلاثة» من كتاب التطور والثبات في حياة البشرية للأستاذ محمد قطب، وراجع كذلك «الصهيونية العالمية» للأستاذ عباس محمود العقاد.

الإستعمار الفكرية، وآثار الصهيونية الفكرية المخزية وإلا كانت تعبئة كفرية، لا تعبئة فكرية.

ومن التعبئة الفكرية التي نريدها أن تعرف أمتنا الأشياء كما هي دون غلو ولا تحريف، تعرف عدوها كما هو بلا مبالغة ولا تزييف.

ومن صور التزييف والتهريج... أن أكثر أجهزة الإعلام في بلادنا، تحاول التقليل من شأن عدونا، والتهوين من أمره، فهو دائما في أزمة اقتصادية آخذة بالخناق، وفي أزمة سياسية وخلاف وانشقاق، وهو دويلة تقوم على الشحاذة والتبرعات من أيدي المحسنين.

وهو مجتمع تهدده التناقضات الداخلية بالتفسخ والإنهيار.

وهو.. وهو.. إلى آخر ما قرأناه وسمعناه.

وهذا اللون من التفكير لا يثمر إلا تضليل الأمة عن حقيقة عدوها، وحقيقة طاقاته وامكاناته، ومثل ذلك من يضخم من شأن العدو، ويجعل من الحبة عنده قبة، ومن القط جملا وكلا الطرفين مذموم. وأولى بنا أن نعرف العدو كما هو، وعلى حقيقته، بلا تكبير ولاتصغير، ولا تهويل ولا تهوين.

إن التضخيم من شأن العدو قد يصيب بعض النفوس باليأس أو بالفزع.

كما أن التهوين منه قد يؤدي إلى الغرور بالنفس، و الأستهتار بالعدو، وعدم الأستعداد الكافي له، وأخذ الحذر اللازم منه.

ولقد جربنا هذا التهوين فلم نَجْنِ من وراءه ثمرة، ظللنا سنين طويلة نقول: إسرائيل «المزعومة»، ثم خجلنا من أنفسنا بعد ذلك، حين رأينا هذه المزعومة تتحدى وتناوش الجبهات العربية كلها، تلطم

هذه وتركل تلك، فاضطررنا إلى حذف كلمة «المزعومة» من قاموسي الصحافة والإعلام عندنا، وأوشكنا أن نكون نحن «المزعومين»!.

ومن التعبئة الفكرية: أن نعرف من صديقنا ومن عدونا بين الأمم والشعوب، فقد وجدنا دولة أفريقية تفتح صدرها وأرضها لإسرائيل، وخبراء إسرائيل، وتفتح أسواقها لبضائع إسرائيل، لتخفف عنها ضغط الحصار الاقتصادي العربي، وتبعث بجنود «الكوماندوس» ليدربوا في إسرائيل وتصبح أرضها المنطلق المأمون لشبكات التجسس الإسرائيلي، ومع هذا كله وما هو أكثر منه، ومع ما تقوم به هذه الدولة من اضطهاد وتنكيل للأكثرية المسلمة التي تتزعمها أقلية وهو اضطهاد همجي لا نظير له على وجه المعمورة اليوم. مع كل هذا ورغم هذا لا تزال هذه الدولة صديقة كثير من دول العربية ولايزال امبراطورها صديقاً لبعض حكام العرب، ولا زال يدعى إلى العواصم العربية فيقابل بالحفاوة والترحاب اللائقين بجلالته الإمبراطورية، وبالصداقة العربية الأثيوبية، دون أدنى وفاء أو مجاملة للثوار العرب المسلمين المجاهدين في أرتيريا العربية المسلمة التي تقاتل وحدها (منذ سنة ١٩٦١) ولا تجد من حكوماتنا عونا ولا نصيرا، ثم بعد ذلك نزعم أننا عرب، وأننا أيضاً مسلمون!.

فمتى نعرف عدونا من صديقنا؟ لقد قال العرب قديماً: «صديق عدوك عدوك» وقال الشاعر:

جزى الله الشدائد كل خير ... وإن كانت لتعضضني بريقي

وما حبي لها إلا لأني ... عرفت بها عدوي من صديقي

ولكن الشدائد القاهرة التي مرت بنا لم تكفنا لنتعلم منها، ولنعرف من عدونا؟ ومن صديقنا؟.

إن الشعوب الإسلامية كلها صديقتنا في قضيتنا. استغفر الله، بل هي أمتنا التي لها ننتمي وإليها نوجه الحديث. أن قضية فلسطين هي قضية المسلمين على وجه عام وقضية الفلسطينيين على وجه أخص، والذي يريد قصرها على الفلسطينيين ـ بحكم الوطنية الأقليمية ـ وقديما سئل رئيس وزارة مصري عن قضية فلسطين فقال بصراحة: أنا رئيس وزراء مصر لا رئيس وزراء فلسطين.

ومن غرائب التفكير في قضية إصرار بعض الناس على جعلها قضية عربية لا تهم إلا العرب وحدهم، وليس من حق المسلمين ـ في زعمهم ـ أن يتخذوا منها موقفا إيجابياً، وأن يقولوا: إن القضية تعنينا أيضاً وكتب بعض الصحفيين في ذلك كلاما لا يستحق أن يسمع فضلا أن يعاد.

ولا أدري بأي منطق هؤلاء يتكلمون؟ وكيف غضبوا لأن باكستان وتركيا أو غيرهما غضبت لعدوان اليهود، وقالوا إن المسجد الأقصى حرم لنا و فلسطين جزء من وطننا الإسلامي.

فيا عجباً كل العجب... أن جميع اليهود في الدنيا القديمة والجديدة يعتبرون إسرائيل دولتهم، ويعدون قضية الصهيونية قضيتهم، ويبذلون لها من أموالهم وأنفسهم ما يبخل به كثيرون من قومنا، وهم مع ذلك ، جنسيات مختلفة وعناصر متباينة تعيش في أوطان متباعدة، بين الشرق والغرب، لا يجمعهم جامع إلا الديانة اليهودية، ولم يتهمهم أحد بأنهم رجعيون متخلفون يفكرون بعقلية دينية، ويتجمعون على أساس الرابطة الدينية.

فلماذا يراد للمسلمين وحدهم أن يعزلوا أنفسهم عن قضية

إخوانهم في فلسطين؟ وبأي حق تحرم مسلماً باكستانياً أو صومالياً أو أندونيسياً يعتقد أن العرب إخوانه، وإن المسجد الأقصى ثالث حرميه، من المشاركة في الجهاد لأجل اعتقاده، بدعوى أن قضية فلسطين عربية قحطانية...؟

ولقد رأيت بعيني رأسي المسلمين في تركيا عقب النكبة الأخيرة، رأيتهم يتحرقون شوقاً إلى الجهاد لنصرة إخوانهم المسلمين العرب والانتقام من أعداء الله اليهود. وهذا برغم ما يبذره الاستعمار بين الأشقاء المسلمين من بذر الشك وسوء التفاهم.

* * *

• إسلامية القضية ضرورة للتعبئة:

ومن ضرورة التعبئة الإيمانية والفكرية: أن نربط قضية فلسطين بأصلها الأصيل وهو الإسلام كما هو الواقع، وننقلها من الإطار الوطني أو القومي الضيق إلى الإطار الإسلامي الرحب.

وربما يظن بعض المتعلمين أن مما يضر بقضيتنا أمام دول العالم المتحضر أن نصبغها بالصبغة الإسلامية، فان العالم اليوم لم يعد يسمع لنغمة الدين أو يطرب لها. وسيرمينا حينئذٍ بأننا قوم رجعيون متخلفون، فلنكتف اذن بجعلها قضية عربية.

ومن سوء حظ الذين يقولون هذا الكلام أن إسرائيل إنما تقوم على الأسس الدينية، أو على الأقل تقيم لها الأعتبار الأول في دعايتها الخارجية، وفي تعبئتها الداخلية.

يقول حايم وايزمان في مذكراته (ص ١٧):

«ولقد قابلت لورد بلفور وزير خارجية بريطانيا الذي بادر بسؤالي على الفور: لماذا لم تقبلوا إقامة الوطن القومي في أوغندا؟. وقلت لبلفور: إن الصهيونية حركة سياسية قومية، هذا صحيح، ولكن الجانب الروحي منها لا يمكن إغفاله وأنا واثق تمام الوثوق أننا إذا أغفلنا الجانب الروحي فإننا لن نستطيع تحقيق الحلم السياسي القومي» قال هذا وايزمان ولم يتهمه أحد في العالم المتحضر بالرجعية ولا التعصب.

ولقد جربنا أكثر من عشرين سنة ونحن نسكب في مسامع العالم المتحضر أن فلسطين أرض عربية اغتصبها الاستعمار والصهيونية فهل أغنى ذلك عنا شيئا؟ وهل وجدنا من يسمع لنا؟ أو يتحمس لنصرتنا؟ كلا.

والسر في ذلك ما قاله السيد عبد الله التل.

«سيظل الغرب المستعمر يهزأ بنا ويسخر منا ما دمنا نعالج مشكلة فلسطين، على أساس أنها أرض عربية اغتصبها الاستعمار واالصهيونية، وذلك لأن منطلقنا هذا لا تقبله شعوب أمريكا التي تكونت من الطلائع الأولى للاستعمار والاغتصاب في العالم. وعاشت حياتها كلها تستحل مال سواها، و تغتصب أملاك غيرها من الشعوب الضعيفة، وحجتنا هذه لا تقنع شعوب أوروبا التي عاشت ـ ولا تزال تعيش ـ على حساب غيرها وتشارك شعوب أمريكا في تمجيدها للاستعمار، فشعوب أمريكا وأوربا لا ترى أي جرم في أن يحتل اليهود المتمدنون!! بلاد العرب المتوحشين ولا ترى غضاضة في أن يبيد اليهود عرب فلسطين، كما أباد الأمريكان الهنود الحمر، وحينما نغير الخطة

وتوجه سير المعركة وجهة أخرى، ونعلن أن فلسطين ليست أرضا عربية فحسب، وإنما هي ملك ٧٠٠ مليون مسلم يفتدونها بالأرواح والمهج، ، لأنها أرض مقدسة، تربطهم بها روابط دينية وتاريخية، أقوى من رابطة بضعة ملايين من اليهود بفلسطين» عندها ترجح كفتنا، ويصبح زمام الأمر بأيدينا»[١].

ولكن هذا يقتضي منا أن نعلن ونحتضن «إسلامية» القضية لا مجرد عروبتها. وقبل إسلامية القضية لا بد أن نعلن ونتبنى إسلامية المجتمع والحكم والفكر لا قوميته واشتراكيته أو ليبراليته، ولابد أن ندعو ونعمل لتحقيق «التحول الإسلامي» للمجتمع، بدلا من «التحول الإشتراكي» وغيره من المفاهيم والشعارات.

وبغير هذا لن نجد «المسلمين» الذين ينتصرون لقضيتنا التي هي في نظر الإسلام قضيتهم. إذ الإسلام يجعل كل شبر في الأرض الإسلامية وطنا للمسلم يفديه بالنفس والنفيس.

ومن هنا يتضح لنا مدى الأرتباط والتلازم بين قضية فلسطين وقضية الإسلام نفسه. وإن قضية فلسطين لا تنفصل أبداً عن قضية الإسلام الكبرى، باعتباره فكرة وعقيدة ومنهج حياة ورابطة تجمع، وشريعة تحكم المجتمع بهداية الله. فلولا ضعف الإسلام في نفوس أهله وفي حياتهم، وفي حكوماتهم العلمانية المختلفة ما استطاعت الصهيونية أن تجد لها وطنا في قلب دار الإسلام.

ويوم تعالج قضية الإسلام نفسها ـ ستعالج معها ـ حتما ـ قضية فلسطين وكل قضايانا المعلقة.

---

(١) من كتاب «خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية».

ويوم يسود الإسلام بعقيدته وشريعته وأخلاقه ومفاهيمه، ومشاعره وشعائره، وآدابه وتقاليده، وتتجسد هذه كلها في مجتمع مهما يكن صغيراً في حجمه وفي رقعة أرضه، وفي حكم يقود هذا المجتمع باسم الله... يومئذ لا تستطيع إسرائيل أن تبقى ولا أن تعيش.

فإذا كان أبناء فلسطين، وإذا كان العرب، وإذا كان المسلمون حريصين على تحرير فلسطين وطرد أعداء الله وأعدائهم من أرضها، فليحرروا أنفسهم أولا من العبودية لغير الله، ومن اتباع غير هداه، وليصمموا صادقين على العودة إلى الإسلام، فهذا هو أضمن طريق - وإن كان أشق طريق لاستنقاذ فلسطين.

وإذا كانت قضية الإسلام ذاته لا تستحق أن تحظى بتفكيرهم ولا اهتمامهم ولا جهادهم، وكانت العقيدة أهون عندهم من الأرض، والشريعة أرخص من التراب، فهيهات أن يتنزل عليهم نصر الله الذي وعد به المؤمنين.

لقد قال هرتزل في المؤتمر الصهيوني الأول لزعماء قومه: «إن عودتنا إلى صهيون يجب أن تسبقها عودة إلى اليهودية».

وإذا كان المؤمن ينتفع بالحكمة ولو من فم عدوه فعلينا أن نقول لقومنا: إن عودتنا إلى فلسطين يجب أن تسبقها عودة إلى الإسلام.